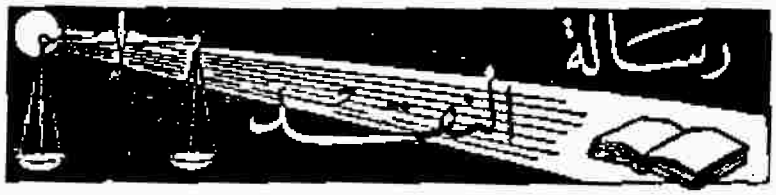

رسالة النقد

اللهجات العربيـــة (*)

للدكتور ابراهيم أنيس
الأستاذ المساعد بدار العلوم
للأستاذ عبد الستار أحمد فراج

ما من شك أن أستاذنا الدكتور أنيس قد بذل مجهوداً عظيما في كتابه اللهجات العربية ، وحاول مشكوراً تطبيق ما تخصص فيه من علم الأصوات الحديث على ما ورد إلينا من اللهجات العربية وسيجد القارئ تبويبا مرتبا وتسلسلاً مرتبطا في عرض واضح لفكرته التي يسوقها وهو يكاد يقنعنا بموافقته على آرائه وقد أبدع في أغلب فصول كتابه الستة ودل — كما نعهده — على علم فياض

وإذا جاز أن تكون العادات والتقاليد في جميع العالم خاضعة لناموس واحد ، جاز لنا أن نقهر جميع اللهجات العربية على الخضوع لما استنتجه الأوربيون من دراستهم لهجاتهم وأصواتهم ولكن ما أحسب أن العوامل التي أثرت في التقاليد الإنجليزية مثلاً تتفق مع العوامل التي أثرت في التقاليد العربية تمام الاتفاق فليست البيئة كالبيئة وكذلك في اللغة ليست الحروف في أكثرها كالحروف وإذا كانت نظرية الطب أن سوء التغذية مثلاً يسبب ضعفاً عاما فليس كل ضعف عام في الطب يرجع إلى سوء التغذية ولكن الظاهرة التي لاحظتها في كتاب أستاذنا هي وجوب إخضاع اللهجات العربية بدون قيد ولا شرط لما قرره علم الأصوات الحديث فإذا وجدنا بعد البحث أن كثيراً من الظاهرات العربية في لهجاتها غير منطبق على ما قرره طعنّا في رواية الرواة مهما بلغت من القوة .

في رأيي أن هذا الاتجاه غير مستقيم ، فليس من العدل أن أفرض النظريات فرضاً ، وإنما العدل أن أدرس وأستقصي ثم أحاول استخلاص قواعد غالبية غير مكتف بمثل أو بضعة أمثلة . لكنه كما قدمت جعل نظريات علم الأصوات الحديث قضايا مسلمة تنطبق على اللهجات العربية تمام الانطباق ، مع أن النظريات الهندسية لا ينطبق فيها كل مثلثين إلا إذا تساوى في الفرض ضلعان والزاوية المحصورة بينهما أو زاويتان وضلع . كما أن الطب إذا وجد أعراضا حاول أن يطبق عليها علمه السابق فإذا وجد فيها نوعاً من المغايرة بحث عن الأسباب ودرسها لا أنه ينكرها أو يخضعها بالقوة لمعلوماته .

أول ما يطالعك كتاب اللهجات العربية في مقدمته ويتكرر في ص ٣٢ : « ولسنا نعلم مؤلفاً من علماء العربية على وفرتهم واهتمامهم بكل دقائق الدراسة اللغوية عني باللهجات العربية عناية خاصة فأفرد لها كتاباً مستقلاً » لو أنه قال لم يصلنا مما ألفه علماء العربية كتاب مستقل باللهجات لكان حقاً لكن إنكاره عليهم العناية باللهجات العربية حكم جائر ، ولقد رجعت إلى كلمة كتبتها في كراساتي[1] من زمن فوجدتني كتبت منها ما يأتي : وليس إفراد كتاب في لغات العرب بالأمر المستحدث ، فقديما كتبت في هذا الموضوع مصنفات أفردها أعلام العربية بالتأليف ، وأول من أفرد كتاباً في لغات العرب هو يونس بن حبيب ونسج على منواله الأصمعي وأبو زيد الأنصاري وأبو عبيدة وجرى على نهجهم أبو عمرو الشيباني والفراء ثم ابن دريد وغيره ، إلا أن أيام الشقاء في بغداد والعراق التي جلبها المغول إليها كانت أشد شقاء على العلم والأدب فعبثت أيديهم بما أنتجته القرائح الفذة وأتت على مجهود كثير من العلماء الأعلام ، فلا يوجد بين أيدينا — فيما أعلم — كتاب ينفرد بلغات العرب ، وقد قرأ هذه الكلمة أستاذنا المرحوم الحازم بك أيام أن كان عميداً بالنيابة لدار العلوم منذ ثمانية أعوام ، وفيها بخطه لفظان بالقلم الأحمر عدلها . أرجو أن يراجع الدكتور تراجم من قدمتهم وغيرهم في كتاب ابن خلكان ومعجم الأدباء ، وسيجد أنهم عنوا باللهجات العربية عناية خاصة وأفردوا لها كتبا مستقلة ، ولكنها مع الأسف لم تصلنا ، وقد تكون مختفية في ثنايا مكتبات العالم تنتظر من يخرجها .

في ص ٤٢ « ولكن الذي قد يدعو إلى الدهشة أن قراءة

(*) ١٨٤ صفحة طبع مطبعة الرسالة

(١) أردت بها أن تكون مقدمة لكتاب لي عن اللهجات جامع لها

أبي عمرو وتلميذه يعقوب لم تقتصر للامالة إلا في مواضع خاصة نصت عليها كتب القراءات ، ولعل الصراع العلمي الذي كان بين الكوفة والبصرة هو الذي دعا إلى أن تتخذ البصرة طريق الفتح في معظم المواضع حتى لا تشبه الكوفة في إمالتها » ...

حقيقة أن يعقوب لم يقتصر للامالة إلا في مواضع خاصة ، أما أبو عمرو فهو من الذين انتصروا للامالة ومن المكثرين فيها — براجع إتحاف البشر — غاية ما في الأمر أن الإمالة قسمان كبرى وهي التي تسمى الاضجاع والبطح ، ومتوسطة وتسمى التقليل والتلطيف ، وأبو عمرو يميل إمالة كبرى تارة ويميل إمالة متوسطة مرة أخرى ، ولكنه على كل حال من القراء المكثرين في الإمالة ، أما أن الصراع العلمي الخ ففيه نظر حيث إن القراءة سنة متبعة تؤخذ بالتلقي والرواية لا بالتشهي والهوى ، وقد يخالف القارئ من حوله لتلقيه من شيوخ آخرين متأثراً بما تلقاه عنهم ، ولهذا لم يكن من الغريب أن عاصماً خالف الكوفيين في إمالتهم لأنه قال لحفص : ما كان من القراءة التي أقرأتك بها فهي القراءة التي قرأت بها على أبي عبد الرحمن السلمي عن علي . والقراءة التي أقرأتها أبا بكر بن عياش هي القراءة التي كنت أعرضها على زر بن حبيش عن ابن مسعود .

في ص ٤٦ « في مثل الفعلين باع ، وقال يظهر أنه قد أتى عليهما حين من الدهر كان ينطق بهما بَيْعَ وقَوْلَ بفتح فسكون ثم تطور الصوت الأول « ai » إلى « e » والصوت الثاني « aw » إلى « o » ثم تطور إلى « a » أي أن فتحة باء الكلمة في الفعل الأول قد أميلت إلى الكسرة وفي الفعل الثاني قد أميلت إلى الضمة — وحقه أن يقول فخمت لأن هذا هو الاصطلاح كما في النشر وكتاب سيبويه ومفصل الزمخشري — ثم تطورت الإمالة إلى الفتح باع وقال » .

أين الدليل على أنه أتى عليهما حين من الدهر كان ينطق بهما بَيْعَ وقَوْلَ مع أن الأفعال الماضية الصحيحة وهي الأكثر متحركة الوسط ويقاس على وزنها الأجوف ولِمَ لم تكن مثلا من أول أمرها قال وباع والطفل يقول بابا وماما من أول الأمر وهل اللفظ الإنجليزي made كان أصله مثلا maid ثم تطور فصار made وأنه ينتظر تطوره إلى mad التي عمن آخر محافظاً على معناه وهل لفظة sad مثلا كانت said ثم تطورت إلى sade ثم صار أخيراً sad حيث يقول لنا في ص٤٧ تلك هي المراحل التي تبررها القوانين الصوتية ، وهل لفظة home كانت haim ثم تطورت إلى home وستصير مستقبلا ham وأرجو ألا يحتج على بمثل write وماضيها wrote لأن الأول مضارع والثاني ماض ، وإلا فهمت أن الأول كان يستعمل الماضي أولاً ، ومع ذلك فهل سيصير مستقبلا rat بالمعنى الأصلي لا المعنى الحالي ، ثم ما قوله في الشعر الآتي :

ليت وهل ينفع شيئاً ليت ... ليت شباباً بوع فاشتريت

و : حوكت على نيرين إذ تحاك ... تختبط الشوك ولا تشاك

في ص ٥٢ « ثم قسموا الإدغام إلى كبير وهو الذي فيه يفصل بين الصوتين الساكنين صوت لين قصير « أي حركة » وقد نسب الإدغام إلى أبي عمرو بن العلاء ، وهذا النوع من الإدغام يتطلب عمليات صوتية معقدة قبل أن يتحقق .. أما النوع الثاني للادغام عند القراء فهو الإدغام الصغير وفيه يتجاور الصوتان الساكنان دون فاصل من أصوات اللين وهو الذي شاع في معظم اللغات لأن شرط تأثر صوت بآخر هو التقاؤهما التقاءاً مباشراً »

أما أن الإدغام الكبير يتطلب عمليات صوتية معقدة قبل أن يتحقق ففيه نظر لأنه لا فرق بين الصغير والكبير إلا أن الكبير يكون فيه المثلان أو المتجانسان أو المتقاربان متحركين مثل : لذهب بسمعهم و يشفع عنده . والصغير يكون أولها ساكنا مثل : اضرب بعصاك واذهب بكتابي ، أما شروط تأثر صوت بآخر هو التقاؤهما التقاء مباشراً ففيه نظر أيضاً لأن كلمة صراط وصيطر وباصط وغيرها تأثرت السين بالطاء فقلبت صاداً أو أشمت فقرئ صراط ومصيطر وباصط الخ وقرئ بعضها بالإشمام وكلها قراءات صحيحة مسموعة وليس الالتقاء فيها مباشراً بل فصلت بينها أصوات ساكنة وأصوات لينة .

ص ٥٧ « على أنه قد روى أيضاً أن بعضاً من تميم يقلبون الهمزة الساكنة إلى صوت لين من جنس حركة ما قبلها فيقولون في رأس وبئر وشؤم على الترتيب راس وبير وشوم » .

لقد نقل هذا الخطأ من حفني ناصف بك فليس هناك كتاب ينسب إلى تميم أو بعضها تسهيل الهمزة ، لأن التميميين أحرص العرب على النبر وذلك بإجماع كتب اللغة ، فمن أين جاء به وكيف تجمع القبيلة بين متناقضين ؟ وقد يجاب أن أبا عمرو التميمي كان يسهل كثيراً من الهمز في قراءته ولكن الجواب قد قدمته في مقالي المنشور بالرسالة في العدد ٨١٣ من أبي عمرو وهو أنه تأثر بشيوخه الحجازيين وهم أكثر من أخذ عنهم ، وكانت نشأة أبي عمرو الأولى في مكة والحجاز .

ص ٦٣ ذكر ما اختلفت فيه القبائل من جهة الإعراب

وأورد .. ليس الطيب إلا المسك وما الحجازية وإن النافية وكم الخبرية — مع ملاحظة أنه وضع علامة استفهام بعد أمثلة كم الخبرية ولعله سهو — ولعل والجر بها ومتى .. الخ ثم قال في ص ٦٥ «والحق أن هذا النوع من الاختلاف الإعرابي لا يمت للهجات العربية بصلة ، وإنما هو من صناعة النحاة حين اشتد الجدل بينهم فلم تكن لهجات الكلام عند القبائل تلتزم الإعراب على الصورة التي رويت لنا في كتب النحاة ، وإنما التزم الإعراب على تلك الصورة في اللغة الأدبية التي نزل بها القرآن الكريم ونظم الشعر» ثم قال في ص ٦٦ «وإلا فكيف يتصور من الناحية الصوتية أن لساناً يعجز عن نصب خبر ما أو نصب اسم لعل أو جر تمييز كم الخبرية»

ونحن قد نسلم أولا — جدلا — أن هذا من صنع النحاة فكيف رضي في صفحة ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ أن يعتبر صنع النحاة يمت للهجات العربية حين يقول إن القبائل البدوية تميل بوجه عام إلى الضم واستشهد له ص ٧٣ بورود : يأيهُ الناس ونحن الذون صبحوا الصباحا وأن بني تميم يعربون أمس . فكيف تصورنا هنا أن لساناً عجز عن يأيها الناس ونحن الذين وبناء أمس على الكسر أم أننا حين نقرر نظرية ننكر وحين نقرر نظرية أخرى نثبت ؟ ومع ذلك فإن هذه الاختلافات الإعرابية التي نسبها إلى صنع النحاة قد جاءت في القراءات والشعر ، فقد قرأ ابن مسعود : ما هذا بشر ، وقرئ في رواية المفضل عن عاصم : ما هن أمهاتهم بالرفع . وورد في الشعر :

لعل أبي المغوار منك قريب — متى لجج خضر لهن نئيج

فلا معنى لأن نكذبهم في كثير ونصدقهم في قليل بدون مبرر

ص ٧٠ «القبائل البدوية تميل إلى الأصوات الشديدة في حين أن أهل المدن المتحضرة يميلون إلى رخاوة تلك الأصوات الشديدة بوجه عام ، فالباء والتاء والدال والكاف وغيرها من الأصوات الشديدة قد نسمعها في أفواه المتحضرين : فاء . سيناً . زاياً . شيناً . على الترتيب» أما أنا فأعترف أني لم أسمع أحداً من المتحضرين يفعل ذلك ، ولعلنا سنسمع في المستقبل من ينطق جملة : بركت دابتك هكذا : فرشس زافسيسن ، وجملة بقيت بيتي عندكم هكذا : فنيس فيسي عنزشم ، وحينئذ ننتقل بالتحضير إلى الرطانة . أما إذا كان قصده بالتاء الثاء وبالدال الذال وحدث خطأ مطبعي فأقول أيضاً إن الثاء حالياً تنطق تاء : توب . تلاتة . تور . تعبان .. الخ والذال تنطق دالا : دهب . ديب . ديل .. الخ ومع ذلك تبقى الباء والكاف فنسمع جملة بثثتك ما في ذاكرتي هكذا فسستس ما في زاشرتي .

ص ٨٦ «أجمع الرواة على نسبة صفة خاصة لقبائل ربيعة عموما أحيانا بالكشكشة وحينا آخر بالكسكسة ... ثم قال ونحن حين ننظر إلى هذه الروايات على ضوء القوانين الصوتية نستطيع أن نستخلص أموراً :

١ — أن الكسكسة بالسين لا وجود لها في اللهجات العربية

٢ — أن الكشكشة مقيدة بكاف مكسورة ..

٣ — ليست الكشكشة مقيدة بحالة الوقف .

٤ — لا بد في الكشكشة أن تحل الشين محل الكاف .

٥ — أن ما خيل للقدماء أنه شين ليس شيناً خالصة — وأراد حرف «تش ch» ثم يقول وهذا الصوت هو نفس ما سمعه القدماء في تلك الظاهرة ، ثم نقل حفني ناصف أن لهجة بلدتي شرويدة وزنكلون وما حولها من مديرية الشرقية يجعلون الكاف كالشين في مثل الكلمتين : كلب وكتاب . ثم يقول : «وعلى هذا فلا شك أن أهل شرويدة وزنكلون ينطقون بكلمة كلب على أنها مكسورة الكاف ... »

إن أغلب الرواة والكتب القديمة والحديثة يقرنون الكشكشة بالكسكسة ولا يفردونها . واختلافهم إنما هو في نسبة كل منهما إلى القبيلة — انظر الصاحبي والقاموس وشرحه ولسان العرب والصحاح وكافية ابن الحاجب والأشموني وخزانة الأدب — وليس كل منهما قد نسبه معظم الرواة إلى قبيلة واحدة فقد نسب إلى تميم وإلى أسد ، وإلى هوازن من قيس ، وإلى بكر من ربيعة وإلى مضر عموماً شاملة تميماً وقيساً وأسداً ، وإلى ربيعة عموماً شاملة بكراً وتغلب . ومن مجموع هذه الروايات يتبين أن الكشكشة والكسكسة موجودتان . على أن الدكتور أنيس في قسم المترادفات ص ١٤٥ ذكر أنه قام بجمع عشرات من الكلمات مع ذكر العلاقة الصوتية بينها ، ومما ذكره ص ١٥٢ تحت اختلاف المخرج : الرعس والرعش . والنبس والنبش .الخ» كما أننا نجد كثيراً من الأطفال وبعض الكبار يجعلون الشين سيناً . فإنكار الكسكسة ليس له ما يبرره بل يجب أن ندرسه .

أما أن الكشكشة مقيدة بكاف مكسورة وإلزام أن يكون أهالي شرويدة وزنكلون وما حولها من مديرية الشرقية ينطقون بكلمة كلب على أنها مكسورة الكاف فهو إلزام بدون ملزم إذ ليس من ذكرهم يكسرون الكاف في كلب ولا كون ، ولم يقل ذلك من نقل عنه مع أنه نقل كسر أول المضارع في موضوع آخر تحت

ملاحظة أخرى . على أن اللهجات العامية فيما كان على وزن فِعال وفُعال بضم الأول أو كسره كَكتاب وحصان وبساط وغراب وصداع يسكنون فاء الكلمة فيقولون كْتاب وغْراب وذلك البدء بالساكن موجود في اللغات الأخرى Flag brass كما أن حرف ch ينطق في كثير مفتوحاً « charm chap chant chaff char » . والرواة لم يقيدوا الكشكشة بحالة الوقف ، بل قالوا من الناس من يجري الوصل مجرى الوقف ورووا فعيناش عيناها وابيش اللهم لبيش ، وعلى فيها ابتق ايفيش . الخ ما رواه الدكتور نفسه في صفحات ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، أما ما استخلصه تحت رقم ٤ فيناقضه ما هو منتشر في اللهجات العامية الآن — ولندع قول القدامى فإنه يناقضه أيضاً — من أنهم يلحقون شيناً آخر الكلام في النفي والاستفهام التقريري سواء كانت هناك كاف أم لم تكن في وصل الكلام ووقفه فيقولون يافلان ما تلعبش وماقابلتكش وسافرش فلان ؟ ونحن وإن كنا نستطيع إرجاع الشين في بعض الأحوال — ما عدا الاستفهام وما آخره كاف خطاب — إلى لفظة شيء مثل ما تلعبش أصلها لا تلعب شيئاً ، ثم ضاعت الحركة الإعرابية والتنوين بفعل العامة فصارت : ما تلعبشي أو ما تلعبش ، إلا أننا لا يمكن أن نرجعها في مثل : سافرش فلان ؟ وماسمعتكش تتكلم إذ لا يؤدي المعنى المقصود قولك أسافرشيء فلان ؟ وما سمعتك شيئاً تتكلم إلا بتكلف وتجوز بعيد ، ولهذا نرجع أمثال ذلك إلى التوسع في لهجة ربيعة ومضر . وعلى كل حال فهنا صوت آخر اتصل بصوت سابق .

ص ١٢٨ « كل لهجة من اللهجات أو مجموعة منها قد التزمت اشتقاق المضارع من الماضي الثلاثي على هيئة خاصة ولا تشذ منها إلا في النادر » .

ولقد كتبت في الرسالة في العدد ٨٠٥ مبيناً خطأ ذلك ولا داعي لتكراره على أننا في لهجاتنا العامة لا نسير على نظام واحد في اشتقاقنا نقول يكتب ويرسم وينسج ... الخ بكسر الثالث ونقول يرطن وينتر ... الخ بضم الثالث ويعلم ويلعب .. الخ بفتح الثالث وكل هذا مما له أوزان في الفصحى قد توافق العامة وقد لا توافقها . أما الإمالة والتسهيل ونحوها فذلك من العادة اللغوية التي لا تشذ عنها الجماعة المرتبطة والبيئة المتفقة .

ص ١٣٩ « روى أن أبا هريرة لم يعرف المقصود من لفظة السكين لأنها في لهجته تسمى المدية ثم قال : ولعل هذه الحادثة كانت قبل نزول القرآن الكريم بلفظ السكين في سورة يوسف » ولو أنه اكتفى بالمثل دون التعليل لكان أحسن لأن أبا هريرة أسلم سنة سبع من الهجرة وسورة يوسف نزلت قبل الهجرة ولو قال قبل سماعه سورة يوسف لكان أدق .

ص ١٤٠ ذكر أن رجلا ذهب إلى أحد ملوك اليمن فاطلع إلى سطح والملك عليه فلما رآه الملك اختبره فقال له ثب ... الخ ولست أدري سبب زيادة « اختبره » لأن القصة وسؤال الملك ما شأنه وإجابة الحاضرين وقول الملك ليست عربيتنا كعربيتهم تنفي أنه اختبره .

ص ١٦٧ « لقت الشيء بمعنى كتبته في لهجة عقيل وعمي عمومته عند قبائل قيس » مع أن عقيلا من قبائل قيس ولو قال عند بقية قبائل قيس لكان أفضل .

لقد أعجبني كل الإعجاب تحليله في الإمالة ووصوله في ص ٤٧ ، ٤٨ إلى أن الكلمات التي أصلها يائي تكون الإمالة فيها هي الأصل ويكون الفتح تطوراً والحجازيون قد قطعوا مرحلة في تطور لهجتهم . وإن الإمالة لأجل الحركة في مثل كتاب وهي التي كان سببها الكسرة للانسجام بين أصوات اللين يكون أصلها الفتح وتكون الإمالة تطوراً إلى مرحلة الانسجام . وكنت أنتظر أن يحكم بعد هذا بأن الحجازيين يميلون الألف لأجل الكسرة لأن النظرية التي قررها سليمة وهي نظرية السهولة والاقتصاد في الجهد المضلل تتجه إليها القبائل المتحضرة ولكنه لم يسعفه الدليل فقال ص ٦٩ « أما حين تكون الإمالة نتيجة انسجام بين أصوات اللين كما في إمالة نحو كتاب فتلك صفة اختصت بها القبائل البدوية وقد سبقت فيها القبائل المتحضرة » ولو رجع إلى الهمع مثلا لوجد النظرية صحيحة إذ نص على أن الحجازيين يميلون الألف لأجل الكسرة . ولاستغنى عما قاله ص ٦٩ فناقض به نظريته الصحيحة .

إني أكتفي بهذا القدر وأعتقد مع ذلك أن كتاب اللهجات العربية قيم في أبحاثه جميل في عرض موضوعاته وإني إذ أنقد كتاب أستاذي فإنما أعطي حق العلم أيضاً ولكل إنسان رأيه وبخاصة أنه كتاب نشر على الناس وأصبح من حق الجميع فإما كنت على حق فيعاد النظر فيما نقدته وإما كنت مخطئاً أو لم أفهم بعد فيردني المؤلف والقراء مع رجائي ألا يكون علم الأصوات الحديث هو كل شيء في الرد وبخاصة ما استنبط بمقارنة السنسكريتية باللاتينية واليونانية مع التعليل المقول لما عارضت به .

عبد الستار أحمد فراج

محرر بالمجمع اللغوي